مائها حتى تُقلع، وإذا هو يتوب إلى الله ويستغفره، ويلوم نفسه لأنها بكت على أمر من أمور الدنيا، وليس في أمور الدنيا ما يستحق البكاء. على أن عبرته لم تكد ترقأ منذ توفي الشيخ؛ وأكبر الظن أنه لم يكن يرى في وفاة الشيخ خطبًا من خطوب الدنيا، وإنما كان يرى فيه خطبًا عظيمًا من خطوب الدين؛ فقد كان الشيخ رحمه الله مثلًا رائعًا للتقوى والورع، وداعيًا صادقًا إلى الله ورسوله، لا يكاد يدعو حتى تهرع إليه القلوب وتُذعن له النفوس، ولا ينصرف المستمعون له إلا وقد زاد مؤمنهم إيمانًا، وأقلع جاحدهم عن جحوده، وهمَّ مقصِّرهم في ذات الدين أن يستدرك ما فات إن استطاع، وأن يستأنف حياة فيها رشاد وخير.

وكان الحاج مسعود مشفقًا أشد الإشفاق أن يَقْصُر إبراهيم عن غاية أبيه؛ فقد كان يرى منه في حياة الشيخ فتورًا ونفورًا وإقلالًا من التردد على مجالس الشيخ وحلقات الذكر. وكان يحدث نفسه في كثير من التردد والخوف بأن إبراهيم قد أطال المقام في القاهرة، والاختلاف إلى الأزهر، والاتصال بشيوخه. ولم يكن مسعود ينفر من شيء نفوره من الأزهر وشيوخه؛ فقد سمع منهم وتحدث إليهم، ورأى فيهم ميلًا إلى التأويل وإقبالًا على التكلف، وربما رأى من بعضهم ازورارًا عن الشيخ؛ فكان هذا كله يسيء ظنه في الأزهر والأزهريين، ويملأ نفسه إشفاقًا على إبراهيم من لزومه لحلقات الدرس واستماعه لهؤلاء الشيوخ الأعلام. وقد اجترأ مرة على الشيخ فقال له في لهجته القروية التي لم تكن تخلو من عنف حلو: ألا تنبئني فيم ترسل ابنك إلى القاهرة ليطلب العلم في الأزهر وعلماء الأزهر يتكلفون الرحلة إليك ليأخذوا قليلًا من علمك، ومنهم هؤلاء الثلاثة الذين يلزمونك منذ أعوام لا يفارقونك، والذين تشتد عليهم في تأديبك لهم، وتأخذهم بالعنف أكثر مما تأخذهم بالرفق وهم راضون بذلك متهالكون عليه؟! فهلا أمسكت ابنك وعلمته مما علمك الله وأدبته كما تُؤدب هؤلاء النفر، وأعددته لخلافتك في أصحابك كما أعدك شيخنا لخلافته فينا؛ وهنا تحطم صوته وانهلت دموعه. فرحمه الشيخ وقال ضاحكًا: ما أنت وذاك يا مسعود؟ أتراني كنت ابنًا للشيخ؟ قال مسعود: لا. قال الشيخ: أترى أن قد كان لشيخنا أبناء؟ قال مسعود: نعم. قال الشيخ: ومع ذلك فقد صرف خلافته عن أبنائه وآثرني بها، فما يدريك أن ابني سيكون خليقتي فيكم؟ وهؤلاء الثلاثة الذين تتحدث عنهم لقد وعوا علم الأزهر كله، ثم جاءوا يطلبون ما عندي من العلم، فدع إبراهيم يحفظ من علم الأزهر مثل ما حفظوا، ولك علي أن أكون بتعليمه هنا حفيًّا، وأن أَعْنُفَ به في التأديب كما أعنف بهؤلاء النفر إن رأيت فيه صلاحًا لذلك الأمر وقدرة على النهوض به.